

الذوق الأدبي والمكتب

وتأثيرها في الأدب وتاريخه

بقلم الأستاذ محمد أحمد النمراري

عمل الذوق في تاريخ الأدب

على ان هذا^(١) ليس معناه ان الذوق لا عمل له قط في تاريخ الادب من حيث هو تاريخ. فان له فيه عملاً اختص تاريخ الادب به أغفله صاحب الكتاب^(٢) وزيد الآن أن نتناوله بتبيين.

ذلك ان لكل كاتب او شاعر روحاً خاصاً يتمشى في اكثر كتاباته من نثر او شعر بحيث لو اكثر مكثر من قراءة كاتب او شاعر وتذوق أدبه تربي لديه ذوق خاص بذلك الكاتب أو الشاعر يدركه به كلها رآه . فاذا اكثر المشتغل بالادب من قراءة المتنبي وأبي الملاء . مثلاً ، او حافظ وشرقي ، او مأكولي ورسكن ، استطاع أن يدرك بما عرف أنه لهم ما لم يعرف بمجرد قراءته او سماعه كأنما صار لكل منهم عنده مذاق خاص ، أو كأنما انتقل اليه جزء من الذوق الذي كان لكل منهم وامتازت هذه الاجزاء . عنده فصار كل منها يدل على الاصل الذي انشقت عنه واتسمى اليه .

ولا شك ان ذوقاً كهذا كان مما أعان الرواة والشعراء . والنقاد الاقدمين على ادراك الدخيل في شعر شاعر بعينه أو كتابة كاتب بعينه ، ولعله هو الذي دلّ

الاصمعي على البيت :

(١) يشير الى فصل سابق في « مكانة الذوق في تاريخ الادب »

(٢) اي الدكتور طه حسين .

انبضوا مجسى القسي وأبرقتنا كما ترعد القحول الفحولا
 من بين أبيات قصيدة المهمل^(١) :
 بثاً ليسي بالانصين طويلا أرقب النجم ساهراً أن يزولا
 كيف اهدا ولا يزال قتيل من بني وائل يُضي قبيلا
 فاختاره من بينها وقال انه موضوع^(٢) . وذوق كهذا هو من غير شك الذي
 جعل بشاراً ينكر البيت :
 وانكرتني وما كان الذي نكرت من الموادث الا الشيب والصفا
 حين عرض عليه منسوباً الى الاعشى فقال : انه لا يشبه كلام الاعشى .^(٣)
 فهذا عمل للذوق في تاريخ الادب لا يستهان بقيسته اذا احسن استعماله

هذا الذوق المكتسب غير الذوق الشخصي

لكن علينا أن نحذر هنا زلة كالتي زلها صاحب الكتاب حين استعمل
 كلمة الاديب بعنيين مختلفين في مقام واحد فلا ندع كلمة الذوق في عبارتنا
 الماضية تمر مطلقة من غير تقييد فانها اذا اطلقت دلت على الذوق الشخصي
 الناشئ عن شخصية الفرد نفسه ، والذي يتجلى عند كل فرد فيما يلذ وما
 يكره وما يفضل ، والذي عنه يصدر فيما يقرأ وما يكتب فتكتب كتاباته
 ذلك الروح الخاص الذي يلزم كتابة كل اديب له ذات أدبية مستقلة . ولكن
 الذوق بهذا المعنى غير الذوق المكتسب أو قل غير الملكة المكتسبة من اكار
 قراءة كاتب بعينه أو شاعر بعينه والتي تدل مکتبها على ذلك الشاعر أو
 الكاتب ان قابله في كتاب .

التقرب بين الذوق المكتسب والذوق الشخصي أو الذاتي

ولعلنا تقرب للقارئ أسر التفرقة بين الذوقين اذا قلنا ان المراد بالذوق
 الشخصي للمؤرخ أو الناقد هو ما يقابل الذوق الشخصي في المؤرخ له أو المنتقد .

(١) عند : الثالث ، حرب البسوس

(٢) الكامل : ثان ص ١٨٨

(٣) ابن سلام

ففي مثل بشار والاعشى كان لبشار ذوق شخصي أو طبيعي يتجلى في شعر بشار وكان للاعشى ذوق يقابله يتجلى في شعر الاعشى . لكن بشاراً اكتسب مما حفظ ودرس للاعشى خبرة بشعر الاعشى أو قل جزءاً من ذوق الاعشى . أمكنه أن يدرك به ان بيتاً مخصوصاً نسب الى الاعشى لا يشبه كلام الاعشى . فهذان الذوقان ممتازان في بشار أحدهما يلزمه فيما يقول من شعر والثاني قلما يستعمله الا عند الكلام على الاعشى خصوصاً عند تمييز شعره من شعر غيره .

ولسنا نجعل أن ذوق بشار الخاص قد تأثر بما أحب أو كره مما قرئ عليه للاعشى ولغيره . . لكن ما استفاد من ذلك قد فقد شخصيته وتحول الى جزء من ذوق بشار كما يفقد الغذاء شخصيته ويتحول الى جزء من الحيوان أو النبات الذي يطعمه ، في حين أن ذوقه المكتسب من مطالعة شعر الاعشى ظل عنده مستقلاً مكنوناً يشمر به بشار حين يستعين به على تقدر شعر أهو للاعشى أم ليس له ، كما فعل في المثل الذي ذكرناه عن ابن سلام .

هذا فرق . وهناك فرق آخر بين الذوقين يحسن أن نذكره زيادة في الايضاح هو ان الذوق الذاتي لشخص ما واحد لا يتعدد وان جاز أن يتطور كما يتطور الكائن الحي ، في حين أن الذوق المكتسب يمكن ان يتعدد ، اذ يستطيع الاديب أن يدرس اكثر من كاتب أو شاعر ويكثر من قراءة كل كاتب أو شاعر يدرسه فيفيد من كل منهم ذوقاً يدرسه به

وفرق بين الذاتي والمكتسب اهم من هذا هو أن الذوق المكتسب من شاعر أو كاتب ما يستطيع أن يكتبه أكثر من اديب واحد اذا أكثر كل منهم قراءة ذلك الكاتب أو الشاعر . فهذا تعدد في الذوق المكتسب ولكن عكس التعدد الاول ، ففي الاول كان المكتسب واحداً وتعدد المكتسب منهم وهنا توحّد المكتسب منه وتعدد المكتسبون .

هذا النوع الاخير من التعدد اهم كثيراً في تاريخ الادب وأنفع من النوع الاول لان فيه ضماناً حسناً لصحة الحكم المبني على هذا الذوق المكتسب فان التحقيق الاديبي يقتضي أن يكون هناك طريق يعرف به جودة الذوق المكتسب من كاتب أو شاعر ما عند ناقد ما ، ويعرف به صحة ما يصدره ذلك الذوق

حكم . والتحقيق يجد مثل هذا الضمان فيما يكون هناك بين أهل الذوق المكتب الواحد من الاختلاف أو الاتفاق في حكمهم بذوقهم على صحة نسبة قول ما الى الكاتب او الشاعر الذي اكتبوا منه ذلك الذوق .
فذلك الذوق المكتب له إذن عمله وقيمه في النقد الادبي التاريخي . اما الذوق الشخصي فان موقف المورخ الادبي منه كوقف العالم يجب ان يتحلل منه ما استطاع .

موقف صاحب الكتاب منه الذوقين

لكن صاحب الكتاب لم يُعن بالفرقة بين هذين الذوقين وعكس الامر فحكم الذوق الشخصي الى حد كبير في التاريخ الادبي واغفل الذوق المكتب اضالاً . صحيح انه أشار فيما بعد (ص ٤٧) الى استخلاص ما في شعر الشاعر المدرس « من خصائص لغوية أو نحوية أو بيانية » وهذا طبعاً طريق مهم لامتحان صحة نسبة قول الى أديب معروف ولكنه طريق آخر غير طريق الذوق المكتب : هذا يتعرف روح الشاعر التي تذاق ، وذلك يتعرف الخصائص التي ترى . هذا سريع لا يكاد يحتاج من الزمن الا الى ما يسع مجرد القراءة أو السماع ، وذلك بطبي يحتاج الى عمل والى زمن يتسع لان يعرض القول فيه على تلك الخصائص واحدة بعد أخرى . وبما حين أنكريت الاعشى أنكروه بذوقه ، ولعله لو كان مثل لماذا لما استطاع أن يجيب ولو أراد أن يعرض ذلك البيت على ما كان يعرفه من خصائص كلام الاعشى لاحتاج الى زمن وتفكير ، ثم لعله لم يكن يظفر بهما بشي . يمكن الاعتداد به ، لان خصائص الشاعر اللغوية أو النحوية أو البيانية لا تظهر في كل بيت من آياته . فصاحب الكتاب قد أهمل الذوق المكتب ومكانته في التاريخ الادبي اهمالاً واستبدل به الذوق الشخصي وجعله أساساً لشي . سماه المقياس الادبي لتاريخ الادب .